

تفسير ابن كثير

أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ^{قوله} إِيَّاكَ اللَّهُ مَعَ اللَّهِ ^ج
قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ

ينبه تعالى أنه هو المدعو عند الشدائد ، المرجو عند النوازل ، كما قال : (وإذا مسكم
الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه) [الإسراء : 67] ، وقال تعالى : (ثم إذا مسكم
الضر فإليه تجأرون) [النحل : 53] . وهكذا قال هاهنا : (أمن يجيب المضطر إذا دعاه
(أي : من هو الذي لا يلجأ المضطر إلا إليه ، والذي لا يكشف ضر المضرورين سواه
قال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا وهيب ، حدثنا خالد الحذاء ، عن أبي تميمة
الهجيمي ، عن رجل من بلهجوم قال : قلت : يا رسول الله ، إلام تدعو ؟ قال : " أدعو
إلى الله وحده ، الذي إن مسك ضر فدعوته كشف عنك ، والذي إن أضللت بأرض
قفر فدعوته رد عليك ، والذي إن أصابتك سنة فدعوته أنبت لك " . قال : قلت : أوصني .
قال : " لا تسبن أحدا ، ولا تزهدن في المعروف ، ولو أن تلقى أخاك وأنت منبسط إليه
وجهك ، ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستقي ، واتزر إلى نصف الساق ، فإن أبيت

فإلى الكعبيين . وإياك وإسبال الإزار ، فإن إسبال الإزار من المخيلة ، [وإن الله - تبارك
تعالى - لا يحب المخيلة] . وقد رواه الإمام أحمد من وجه آخر ، فذكر اسم الصحابي
فقال : حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة ، حدثنا يونس - هو ابن عبيد - حدثنا عبيدة
الهجيمي عن أبي تميمة الهجيمي ، عن جابر بن سليم الهجيمي قال : أتيت رسول الله -
صلى الله عليه وسلم - وهو محتب بشملة ، وقد وقع هديها على قدميه ، فقلت : أيكم
محمد - أو : رسول الله ؟ - فأوماً بيده إلى نفسه ، فقلت : يا رسول الله ، أنا من أهل
البادية ، وفي جفاؤهم ، فأوصني . فقال : " لا تحقرن من المعروف شيئاً ، ولو أن تلقى
أخاك ووجهك منبسط ، ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستقي ، وإن امرؤ شتمك بما
يعلم فيك فلا تشتمه بما تعلم فيه ، فإنه يكون لك أجره وعليه وزره . وإياك وإسبال الإزار ،
فإن إسبال الإزار من المخيلة ، وإن الله لا يحب المخيلة ، ولا تسبن أحداً " . قال : فما
سببت بعده أحداً ، ولا شاة ولا بعيراً . وقد روى أبو داود والنسائي لهذا الحديث طرقاً ،
وعندهما طرف صالح منه . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا علي بن هاشم حدثنا
عبدة بن نوح ، عن عمر بن الحجاج ، عن عبيد الله بن أبي صالح قال : دخل علي طائوس

يعودني ، فقلت له : ادع الله لي يا أبا عبد الرحمن ، فقال : ادع لنفسك ، فإنه يجيب
المضطر إذا دعاه . وقال وهب بن منبه : قرأت في الكتاب الأول : إن الله يقول : بعزتي
إنه من اعتصم بي فإن كادته السموات ومن فيهن ، والأرض بمن فيها ، فإني أجعل له من
بين ذلك مخرجا . ومن لم يعتصم بي فإني أخسف به من تحت قدميه الأرض ، فأجعله
في الهواء ، فأكله إلى نفسه . وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة رجل - حكى عنه أبو
بكر محمد بن داود الدينوري المعروف بالدقي الصوفي - قال هذا الرجل : كنت أكارى
على بغل لي من دمشق إلى بلد الزيداني ، فركب معي ذات مرة رجل ، فمررنا على بعض
الطريق ، على طريق غير مسلوكة ، فقال لي : خذ في هذه ، فإنها أقرب . فقلت : لا خبرة
لي فيها ، فقال : بل هي أقرب . فسلكناها فانتبهينا إلى مكان وعرواد عميق ، وفيه قتلى
كثير ، فقال لي : أمسك رأس البغل حتى أنزل . فنزل وتشمر ، وجمع عليه ثيابه ، وسل
سكينا معه وقصدني ، ففررت من بين يديه وتبعني ، فناشدته الله وقلت : خذ البغل بما
عليه . فقال : هو لي ، وإنما أريد قتلك . فخوفته الله والعقوبة فلم يقبل ، فاستسلمت بين
يديه وقلت : إن رأيت أن تتركني حتى أصلي ركعتين ؟ فقال : [صل] وعجل . فقمت

أصلي فأرتج علي القرآن فلم يحضرني منه حرف واحد ، فبقيت واقفا متحيرا وهو يقول :
هيه . افرغ . فأجرى الله على لساني قوله تعالى : (أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف
السوء) ، فإذا أنا بفارس قد أقبل من فم الوادي ، ويده حربة ، فرمى بها الرجل فما
أخطأت فؤاده ، فخر صريعا ، فتعلقت بالفارس وقلت : بالله من أنت ؟ فقال : أنا رسول [
الله] الذي يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء . قال : فأخذت البغل والحمل
ورجعت سالما . وذكر في ترجمة " فاطمة بنت الحسن أم أحمد العجلية " قالت : هزم
الكفار يوما المسلمين في غزاة ، فوقف جواد جيد بصاحبه ، وكان من ذوي اليسار ومن
الصلحاء ، فقال للجواد : ما لك ؟ ويلك . إنما كنت أعدك لمثل هذا اليوم . فقال له الجواد
: وما لي لا أقصر وأنت تكل علوفتي إلى السواس فيظلمونني ولا يطعمونني إلا القليل ؟ فقال
: لك علي عهد الله أني لا أعلفك بعد هذا اليوم إلا في حجري . فجرى الجواد عند ذلك ،
ونجى صاحبه ، وكان لا يعلفه بعد ذلك إلا في حجره ، واشتهر أمره بين الناس ، وجعلوا
يقصدونه ليسمعوا منه ذلك ، وبلغ ملك الروم أمره ، فقال : ما تضام بلدة يكون هذا الرجل
فيها . واحتال ليحصله في بلده ، فبعث إليه رجلا من المرتدين عنده ، فلما انتهى إليه أظهر

له أنه قد حسنت نيته في الإسلام وقومه ، حتى استوثق ، ثم خرجا يوما يمشيان على جنب الساحل ، وقد واعد شخصا آخر من جهة ملك الروم ليتساعدا على أسره ، فلما اكتنفاه ليأخذه رفع طرفه إلى السماء وقال : اللهم ، إنه إنما خدعني بك فاكفنيهما بما شئت ، قال : فخرج سبعان إليهما فأخذاهما ، ورجع الرجل سالما . وقوله تعالى : (ويجعلكم خلفاء الأرض) أي : يخلف قرنا لقرن قبلهم وخلفا لسلف ، كما قال تعالى : (إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين) [الأنعام : 133] ، وقال تعالى : (وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات) [الأنعام : 165] ، وقال تعالى : (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة) [البقرة : 30] ، أي : قوما يخلف بعضهم بعضا كما قدمنا تقريره . وهكذا هذه الآية : (ويجعلكم خلفاء الأرض) أي : أمة بعد أمة ، وجيلا بعد جيل ، وقوما بعد قوم . ولو شاء لأوجدهم كلهم في وقت واحد ، ولم يجعل بعضهم من ذرية بعض ، بل لو شاء لخلقهم كلهم أجمعين ، كما خلق آدم من تراب . ولو شاء أن يجعلهم بعضهم من ذرية بعض ولكن لا يميمت أحدا حتى تكون وفاة الجميع في وقت واحد ، فكانت تضيق عليهم الأرض

وتضيق عليهم معاشهم وأكسابهم ، ويتضرر بعضهم ببعض . ولكن اقتضت حكمته
وقدرته أن يخلقهم من نفس واحدة ، ثم يكثرهم غاية الكثرة ، ويذراهم في الأرض ،
ويجعلهم قرونا بعد قرون ، وأما بعد أمم ، حتى ينقضي الأجل وتفرغ البرية ، كما قدر
ذلك تبارك وتعالى ، وكما أحصاهم وعدهم عدا ، ثم يقيم القيامة ، ويوفي كل عامل
عمله إذا بلغ الكتاب أجله ؛ ولهذا قال تعالى : (أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف
السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله) أي : يقدر على ذلك ، أو إله مع الله يعبد ،
وقد علم أن الله هو المتفرد بفعل ذلك (قليلا ما تذكرون) أي : ما أقل تذكرهم فيما
يرشدهم إلى الحق ، ويهديهم إلى الصراط المستقيم .